قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي

أصل هذا الموضوع محاضرة لفضيلة الشيخ / محمد الصادق مغلس، أُلقيت في مسجد هائل سعيد بصنعاء مساء الخميس (٤محرم سنة ١٤٢٢هـ الموافق ٢٩ مارس سنة ٢٠٠١م) وقد أحببنا نشرها تعميمًا للفائدة مع الأسئلة والأجوبة التي بعد المحاضرة.

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ

الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

سبيل الله هو صراط الذين أنعم عليهم من النبيين ومن تبعهم:

فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، هذه الآية الكريمة فيها أمرٌ من الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ بأن يبيِّن للناس سبيله، وطريقته ومنهجه، وأن يبيِّن لهم أهمية الدعوة وأهمية نشر هذا الدين، وإيصال الإسلام إلى جميع العالمين ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ والسبيلُ: المقصود بها الطريق، والله تبارك وتعالى جعل الإسلام ؛ طريقًا مستقيمًا وأمرنا في كل ركعة أن ندعوه جل

وعلا فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: - نسأله جل وعلا وتعالى - هذا الصراط، وهو صراط سار فيه جميع الأنبياء وجميع الصلحاء في كل زمان ومكان، ولذلك جاء بعد هذه الآية ما يدل على أن هذا الصراط ليس خاصًا بمحمد عليه الصلاة والسلام وأمته، وإنما هو صراط لكل الأنبياء وكل الأمم، فقال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، من هم الذين أنعم الله عليهم؟ قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، وبيَّن سبحانه أن هذا الصراط لا يقبل الازدواجية ولا يقبل أن يلتحق به غير أهله، فقال ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾.

والمغضوب عليهم: هم اليهود، **والضالون:** هم النصارى كما بيَّن ذلك الرسول ﷺ في حديث رواه ابن حبان وغيره، وقال الألباني - رحمه الله - إنه صحيح، فالصراط المستقيم:

صراطٌ منفردٌ بعيدٌ عن الذين غضب الله عليهم، وفي مقدمتهم اليهود، وبعيدٌ عن صراط الذين ضلوا وفي مقدمتهم النصارى، واليوم الذين يقودون العالم في الغالب إنما هم اليهود والنصارى، ولذلك نبه الله تبارك وتعالى على ضرورة الابتعاد عن طريق اليهود والنصارى، ومن ابتعد عن طريقهم ؛ فلا شك سوف يكون أبعد عن طريق مَنْ سواهم؛ من الوثنيين والمشركين.

إن صراط الله تبارك وتعالى ؛ صراطٌ واضحٌ لا لبس فيه، وما حوله سبلٌ متشعبةٌ لا توصل إلا إلى البوار والخسران: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إن هنالك طرقًا كثيرة بجانب الصراط المستقيم وقد شق هذه الطرق الشيطان الرجيم ومن ضمنها طريق اليهود ومن ضمنها طريق النصارى.

الخروج عن سبيل الله وصراطه انزلاق في سبل الشيطان:

جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**خط رسول الله ﷺ خطًا، وخط بجواره خطوطًا ثم قرأ هذه الآية:** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: لا تتبعوا تلك الطرق الجانبية، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وذكر الألباني أنه صحيح، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تفرقوا، وفوق الصراط داعٍ يدعو، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال له: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تَلِجْهُ، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي الذي على رأس الصراط هو كتاب الله، والداعي الذي فوق الصراط هو واعظ الله في قلب كل مسلم» ففي هذا المثل فصَّل الرسول ﷺ ما يتعلق بالصراط أو السبيل، فقال بأن الصراط المستقيم هو الإسلام، وهو السبيل الذي ارتضاه الله لعباده، وأن السورين هما حدود الله، هذا طريق، وهنا سور على اليمين، وهنا سور على اليسار، فقد تخطى الحدود، وفي السورين أبواب مفتحة والأبواب

عليها ستور مرخاة وليست مغلقة بمعنى: أنه يستطيع أيّ أحد أن يرفع الستر ويخرج بسهولة ويُسْر، لكنَّه إذا خرج من بابٍ من هذه الأبواب فإنه قد ارتكب إحدى محارم الله، فارتكاب المحرمات أمرٌ سهل وأمرٌ يسير، ثم بيَّن أن هنالك داعيًا عند رأس الصراط أو عند باب الصراط، وهو كتابُ الله يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تفرقوا ؛ لأن الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ ليس خاصاً بأناس دون أُناس، وإنّما هو شاملٌ لجميع الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فليس دين الإسلام خاصاً بالعرب، ولا خاصاً بالذين عاشوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما هو للناس جميعًا في كل جيل وقبيل، وكتاب الله يدعوهم للدخول في هذا الصراط جميعًا، وينهاهم عن التفرق، ولو دخلوا فعلاً في هذا الصراط لَمَا تفرقوا ؛ لأنه طريق واحد، ومن حوله سوران يحفظان كل من دخل في الصراط، فلذلك سيكونون جميعًا على

استقامة واحدة لن يتشتتوا هنا وهناك، لو التزموا بهذا النطاق فلن يخرجوا عن حدود الله، فإن الصراط تلقائيًا سوف يوحِّدهم ويجعلهم طابوراً واحداً، كل واحد مع الآخر، والداعي الذي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم، فبجانب كتاب الله الذي يرشد ويوجه ويبيِّن ويفصل وينير، بجانبه قلب المؤمن، هذا القلب قلبٌ قد تصفَّى وتنقَّى فهو لذلك ينبه صاحبه عند كل خلل.

إذا جاء الشيطان يريد أن يحرف المؤمن فإن قلبه ينهاه ويعظه، ويذكِّره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، إذا طاف بهم الشيطان مجرد طواف فمعهم قلوب حية، معهم واعظ في الداخل ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ لا تلتبس عليهم الأمور، ولذلك جعل الرسول ﷺ مثل هذا القلب مرجعًا للمسلم في الأمور المشتبهة التي ليس فيها نص واضح ، قال: «**استفتِ قلبك**» كما في الحديث، وهذا الكلام ليس لكل أحد، إنما هو للمؤمن فقط ؛ لأن قلبه يصلح أن يكون معياراً حيث لا

نص، أما حيث يوجد النص فعليه أن يلتزم النص، لكن في الأمور المشتبهة التي تشبه الحلال في وجه، وتشبه الحرام في وجه، فالمؤمن يكون وَقَّافًا، يعظه قلبه بأن يجتنب ويبتعد «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (١)، «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» (٢).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ : فهذه هي السبيل – الصراط المستقيم – الذي بدايته في الدنيا ونهايته في الجنة، والذي سار فيه كل الأنبياء والصالحين من قبلنا، هذه السبيل، السير فيها فيه تبعات وفيه مشقات، وفيه أعباء وفيه تكاليف، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما في الحديث الصحيح «حُفَّت الجنة بالمكاره» (٣) فلا يصمد في السير في هذه السبيل أو في هذا الصراط إلا من رزقهم الله تبارك وتعالى الفوز والفلاح، يصمدون طوال العمر، بعض الناس قد يثبت سنوات ثم يستثقل الأعباء والتكاليف، فيمرق من بابٍ من هذه الأبواب، التي ليس

(١) رواه الإمام أحمد والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٧٧)
(٢) رواه الإمام البخارى ومسلم .
(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم .

عليها إلا ستور مرخاة، ما أسهل ما يخرج الإنسان، وبعض الناس – والعياذ بالله – قد يقضي عمره كله وهو يسير في الظاهر أمام الناس في هذا الطريق، ولكنه ليس مُخلصًا من الداخل، فيفضحه الله في آخر عمره فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيخرج في نهاية المطاف، وينزلق إلى سبيلٍ من تلك السُّبل الشيطانية، فعلى رأس كل سبيل من السبل شيطان يدعو إليه، والناس لهم أهواء متعددة ولهم نظرات مختلفة، والشيطان يأتي كل واحد من الباب الذي يهواه، فيجرجره إلى حيث يلقيه في نهاية المطاف في نار جهنم – والعياذ بالله –.

الثبات على الصراط إنما يكون بتوفيق الله:

لذلك فإن الثبات على الصراط المستقيم أمرٌ فيه مشقة، ومن أجل هذه المشقة، فإن الله تبارك وتعالى كلَّفنا بأن نقول في كل ركعة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾.

لا يجوز لأحد أن يركن إلى نفسه وأن يقول قد صرت من المسلمين وصرت من المؤمنين، وأصبحت من المجاهدين ومن الداعين إلى الله، لا يطمئن العاقل أبداً، لا يأمن مكر الله

أبداً، لا يزال يستشعر أنه في حاجة مستمرة إلى عون الله تبارك وتعالى له، فهو لذلك حين يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يستشعر بصدق أنه بحاجة إلى هداية الله تبارك وتعالى، ولذلك حينما يضع المؤمنون رحالهم في الجنة في نهاية المطاف بعد الامتحان الطويل في الدنيا يتنفّسون الصعداء ويرتاحون ؛ لأنهم قد أمنوا فعلاً، وحكى الله عنهم أنهم يقولون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]- هدانا لهذا الطريق - سرنا فيه حتى وصلنا وأصبحنا في الجنة ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فالمؤمن بحاجة إلى هداية الله، بحاجة مستمرة في كل لحظة إلى تثبيت الله، حتى لا ينزلق ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم: ٢٧]، إن تبعات الصراط المستقيم تبعات عظيمة، ولذلك ابتلى بها الأنبياء قبل أن يبتلي بها عامة أهل الإيمان، ومن ضمن مَنْ ابتُلي نبيّنا محمد ﷺ، وفي الحديث الذي رواه مسلم يحكي الرسول عليه الصلاة والسلام عن ربه تبارك وتعالى أنه

قال: «**إني بعثتُك لأبتليك وأبتلي بك..**» ابتلي الرسول ﷺ وهو سائر في هذا الصراط، وهو يشقه لهذه الأمة تبعًا للأنبياء الذين سبقوه فهو أول هذه الأمة ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، يتبع الأنبياء السابقين، ومن ضمنهم إبراهيم عليه السلام الذي هو إمام الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فهو أول المسلمين في هذه الأمة، وقد أحاطت به عناية الله، فكان ربنا جل وعلا يوجهه باستمرار بأن يثبت على الاستقامة على هذا الصراط، وأن لا يحيد يمنة أو يسرة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

عروض لو استُجيب لها فهي انحراف عن الصراط:

ومن الأهواء التي كان يراد لها أن تَحْرِف الرسول ﷺ عن هذا الصراط المستقيم أن قريشًا عرضت عليه كما ورد في

الروايات أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة – فنزل الوحي يثبته وينبهه إلى أن لا يلتفت إلى مثل هذا الهوى الذي جاءه من قبل المشركين – أنزل الله عليه قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، كرّر هذا المعنى مرة بصيغة الفعل، ومرة بالجملة الإسمية التي تفيد الثبات والاستمرار، حتى يقطع الأمل على الكافرين في أنه يستجيب لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أنا في طريق لا يمكن أن أنزلق إلى سبيل من سبلكم.

ولأهمية هذا الأمر، ولكي يبقى في الذهن دائمًا، فإن الرسول ﷺ شرع أن تُقرأ هذه السورة مع سورة الإخلاص، وهي سورة التوحيد، أن تُقرأ هاتان السورتان كل يوم، في ركعتي الفجر، كما في الحديث الذي رواه مسلم وفي ركعتي المغرب كما في الحديث الذي رواه أحمد، حتى يبقى هذا الأمر في ذهن المسلم باستمرار، أن طريقه متميز، متميز عن طرق وأهواء

الكافرين، ومن ضمن الأهواء التي أراد المشركون أن يضغطوا بها على رسول الله ﷺ أن قالوا له كما ذكرت كتب التفسير: تمسّح بآلهتنا ونحن ندخل معك في دينك - خفّضوا الطلب لم يقولوا له اعبدها سنة - بل قالوا: تمسح بها - وكان الرسول ﷺ حريصًا على إسلامهم فَرَقٌ لهم فأنزل الله تبارك وتعالى عليه قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ [الإسراء: ٧٣]، كادوا أن يفتنوا مَنْ ؟! أن يفتنوا الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو مؤيد بالوحي، المعصوم، الداعية الأول إلى التوحيد، إمام هذه الأمة كادوا أن يفتنوه بما عرضوا عليه، لكي يفتري غير التوحيد، مجرد التمسح بالآلهة شرك، وهو افتراء على الله عز وجل، وأقوال النبي ﷺ وأفعاله منسوبة إلى الوحي، فإنْ يفعل شيئًا خلاف الوحي فهو افتراء على الوحي، ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)﴾، وفي بعض الروايات أنه كان يريد أن يستلم الحجر الأسود فقالوا له: لا ندعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا، حتى تمسح عليها

فقال الرسول ﷺ في نفسه وما عليَّ لو عملت ذلك والله يعلم مني خلافه – أي: خلاف هذا الفعل – يعني مني أني لا أؤمن بهذه الآلهة، وإنما فعلت هذا من باب التقريب لهؤلاء الناس، فأنزل الله عليه هذه الآية ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

النية الحسنة لا تُبرر العمل المنحرف:

حتى الشيء المظهري غير مقبول، لو قال قائل: إن فعلت فعلاً، والذي في أعماقي بخلافه – هذا غير مقبول في دين الله عز وجل!! – لابد أن تكون الأقوال، والأفعال كلها سديدة على مقتضى الشرع ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١]، النية الحسنة لا تبرر العمل المنحرف، فوجَّه الله تبارك وتعالى هذه الآيات إلى نبيه محمد ﷺ لكي يمنعه من أن يلتفت إلى أهواء الكافرين: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ سيفرحون وسيجعلونك صديقاً لهم مقرباً منهم لماذا ؟! لأنهم خلطوا – خلطوا التوحيد بالشرك – وهذا هو مراد الشيطان أن تختلط الأمور أن تختلط الأوراق، يشق على الشيطان وأعوانه أمر التوحيد﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥]،﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤]، ولولا أن الله تبارك ثبَّت نبيه محمداً ﷺ فإنه كإنسان يمكن أن يركن إليهم، ويمكن أن يقبل بعض أطروحاتهم، وبعض عروضهم فكيف بغير الرسول ﷺ ؟، هل يليق بأحد أن يثق بنفسه كل الثقة ؟ ويقول: أنا لا يمكن أن أنحرف !!، لا يليق بأحد أن يثق بنفسه أبداً، بل عليه أن يظل دائمًا مُلحًا على الله تبارك وتعالى، واقفًا ببابه يسأله الهداية، يستهديه باستمرار، كان الرسول ﷺ كما في الحديث الذي رواه مسلم وغيره يقول:«**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي على**

طاعتك» وهو رسول الله ﷺ !!﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤ و ٧٥]، هذا وعيد وتهديد لرسول الله ﷺ فكيف بغيره ؟، يعني لو حصل هذا سوف نعاقبك عقاباً مضاعفًا ؛ لأنك إمامٌ «ونبي»:﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي: ضعف العذاب في الحياة الدنيا،﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: وضعف العذاب بعد الموت﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]، من أين سيأتي النصر وقد انحرف وخرج عن الصراط المستقيم ؟، لا يمكن أن يأتي النصر، وقد عصم الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ فلم يركن ولم يفتن ولم ينحرف، وأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يوجد أحد منهم معصوم، فلابد أن ينتبه كل داعية لنفسه وأن يحرص على الاستقامة على نهج الله، وأن يحذر الأهواء لا سيما في هذا الزمان، ففي هذا الزمان كثرت الفتن وتنوعت وتشعبت وتشبَّهت بالحق، كثير من أنواع الضلالات أصبحت تتشبه بالحق، فلذلك لابد أن يكون المؤمن على حذر شديد، وأن

يكون ملحًا على الله تبارك وتعالى إلحاحًا شديداً أن يهديه الصراط المستقيم.

الواردات كثيرة في هذا الزمان، وهذه الواردات فيها من الضغوط وفيها من الإغراءات الشيء الكثير يقول: الأستاذ / سيد قطب – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية وما بعدها كلامًا مهمًا، وكلامًا ينبغي لسائر الدعاة أن يضعوه نصب أعينهم ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ – ٧٧].

يقول: «يُعدِّد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه، ليفترى عليه غيره، وهو الصادق الأمين.

لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى، منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم، وما كان عليه آباؤهم، ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حرامًا كالبيت العتيق الذي حرمه الله، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس الفقراء.

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ليذكر فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً، ولَلَقِى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين، وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات، دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله.

هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ﷺ وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً محاولة إغرائهم لينحرفوا – ولو قليلاً – عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة ومن حَمَلَة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته ؛ لأنه يرى الأمر هينًا، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية،

إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها !.

ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو كان يسيراً، وفي إغفال طرف منها ولو كان ضئيلاً،لا يملك أن يقف عندما سلَّم به أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء !.

والمسألة: مسألة إيمانٍ بالدعوة كلها، فالذي يتنازل عن جزءٍ منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤُل لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان، فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر، وليس فيها فاضل ومفضول، وليس فيها ضروري ونافلة، وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه، وهي كل متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره !.

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها !.

والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها، هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم، ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة؟، فلن تنقلب الهزيمة نصراً ؟!» ا. هـ.

إن بعض الدعاة في هذا الزمان وقعوا في الفخ، جاءتهم الواردات، ففي خلال هذا القرن فقط جاءتنا القومية، وجاءتنا الاشتراكية، وجاءتنا الديمقراطية، هذه فقط نماذج لقليل من الواردات، وإلا فالواردات والفتن كثيرة، وبعض الدعاة انزلق فحاول أن يُوفِّقَ بين القومية والإسلام، وأن يبيِّن أنه لا تصادم بينهما ولا تناقض مع أن الإسلام كما قلنا دين العالمين، ليس ديناً قومياً، وبعضهم حاول أن يُوفِّقَ بين الإسلام والاشتراكية ! فأخذ يحاول أن يلوي النصوص، وأن يتأول بعض الآيات وبعض

الأحاديث لكي تتفق مع هذا الوافد الغريب الذي جاء من اليهود والنصارى !!.

الرضا بديمقراطية الغرب انحراف عن الصراط:

وبعضهم حاول كذلك أن يُوَفِّقَ ما بين الإسلام والديمقراطية، وطبعًا هذه الدعوات مع مرور الأيام سقطت وطاحت، وانكشف للناس أنها زيف، وأنه لا يمكن أن يلتقي الإسلام بالدعوة القومية الجاهلية، ولا أن يلتقي الإسلام بالدعوة الاشتراكية التي أسسها اليهود والنصارى، وكذلك مع مرور الأيام سيعرف الناس زيف الديمقراطية، وإن كانوا اليوم منبهرين بها، ولا أقول بأن الجميع منبهرون ولكن البعض قد انبهر ﴿قل هذه سبيلي﴾ سبيل الله واضح، كيف يمكن أن يلتقي سبيل الله الذي بدايته ونهايته ومساره التوحيد، مع الديمقراطية التي هي شرك ؟ الديمقراطية: التي هي حكم الشعب نفسه بنفسه، الشعب يحكم نفسه، وكأن هذا الشعب قد خلَق نفسه، يعني أن الشعب صار إلهًا ! عندنا في الإسلام الحكم لله وحده ﴿إن الحُكْمُ إلاَّ للَّه أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه ذلك الدّين القيّم﴾ [يوسف: ٤٠]، هذا هو الدين القيم أن يكون الحكم لله وحده،

الحكم في الديمقراطية كما يزعمون للشعب، ثم يقولون الشعب يختار مجموعة نيابةً عنه لكي يحكموا، فهؤلاء المجموعة يُشرِّعون بمعنى أنهم يحللون ويحرمون، وهذا التشريع إنما هو لله وحده، الرسول ﷺ كما في الحديث الحسن بيَّن ذلك لعدي بن حاتم حينما قرأ عليه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عدي: إنهم لم يعبدوهم، قال له الرسول ﷺ: «**ألم يحرموا عليهم الحلال ويحلوا لهم الحرام ؟!، فتلك عبادتهم إياهم**»، وفي الديمقراطية تُشرِّع الأغلبية، وحتى في ديار المسلمين يأتيهم العالم بالنص، ويراجعهم فيقولون له العبرة بالتصويت، والحكم للقاعدة.

من بلايا الديمقراطية في بلاد المسلمين:

[أ] التشريع:

فالتشريع بغير ما أنزل الله شرك، والقبول بهذا التشريع نوع من العبادة ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فالديمقراطية هذه حقيقتها أنها تشريع يشرعه العبد للعبد، والله هو الذي خلق وهو الذي يُشرِّع:

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما أنه هو الذي خلق فهو الذي يأمر، وهؤلاء الذين يريدون أن يُشرِّعوا على الطريقة الديمقراطية، الأصل أولاً أن يخلقوا لهم عبيداً ثم يُشرِّعوا لهم، أما أن يُشرِّعوا لعَبيد خلقهم الله تبارك وتعالى، فهذا لا يصلح، الديمقراطية التي أصبح بعض الدعاة يدعو إليها هي في جوهرها كما قلنا تحكيم لغير الله هذا هو جوهرها، ثم بعد ذلك إذا حلَّت في ديار فإنها تعطي الناس الحرية – الحرية المطلقة – ليس حرية مقيدة بشرع الله ؛ لأنها أصلاً لا تعترف بشرع الله.

[ب] فتح المجال لفرق وأحزاب الضلال:

في ظل هذه الديمقراطية في بلاد المسلمين نشطت الحركات الباطنية بعد أن كانت ضعيفة، لو جاء شخص يعترض على هؤلاء الباطنية يُقال له الرأي والرأي الآخر، التعددية، السماح بالحزبية، لا تستطيع أن تحجر على الآخرين، نشط الروافض الاثنا عشرية الذين يزعمون أن القرآن ناقص وأن القرآن محرَّف، وأن هنالك قرآنا آخر كان عند فاطمة، ويزعمون العصمة لاثنى عشر إمامًا، ويُكفِّرون الصحابة، ولهم بلايا كثيرة

حتى قال ابن تيمية -رحمه الله- عنهم: «بأنهم أكفر من اليهود والنصارى»، هؤلاء نشطوا في ديار المسلمين ؛ لأن كلامهم رأى آخر، وفي ظل الديمقراطية لا يجوز لك أن تتحجر الرأى وتمنع غيرك، نشطت حركات التنصير في ديار المسلمين، حتى في داخل جزيرة العرب التي قال عنها الرسول ﷺ: **«أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»**، كما في الحديث الصحيح، حركات التنصير في ظل الديمقراطية نشطت في بلاد المسلمين؛ لأن هذا رأي من الآراء، ولا يجوز أن تحجر عليه، ولا أن تمنعه، نشط العلمانيون والأحزاب العلمانية، وأخذت هذه الأحزاب تتبنى أفكارها وتنشرها بعضهم يتبنى الفكر الاشتراكي، يزعم أن الإسلام لم يأت بنظام اقتصادي يصلح في هذا العصر فهو لذلك يتبني الفكر الاشتراكي، وهو يدعو إليه، لا تستطيع أن تمنعه ؛ لأن الديمقراطية تفرض عليك أن تدعو في طريقك وهو يدعو في طريقه، انتشر غلاة الصوفية كذلك في ديار المسلمين، لا يستطيع أحد أن يمنعهم، بعضهم يقر بوحدة الوجود فيقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

يعني أن الله حَلَّ فيه وهو حَلَّ في الله – والعياذ بالله – انتشر مثل هذا الفكر في ديار المسلمين في عصر الديمقراطية، كانت مثل هذه الأفكار قد اختفت في الماضي في كثير من الديار، ولكن في ظل الديمقراطية انتشرت كثير من الضلالات وكثير من الرزايا، وعششت وفرخت في ديار المسلمين، لا يستطيع أحد أن يقف في وجه تيار من هذه التيارات، ولو وقف لقالوا له: أنت لا تؤمن بالديمقراطية!!، وبعض الدعاة انزلق في هذا المنزلق فأخذ يطبل للديمقراطية، وأخذ يؤصل لها وأخذ يفلسفها، وأخذ يصنع فقهًا جديداً، بأن هنالك ثوابت لا ينبغي تجاوزها، وبأنه يسمح للرأي والرأي الآخر وكذا وكذا !!، والحقيقة أنه لا ضوابط ولا ثوابت كما نرى في الواقع.

[جـ] تولية غير المسلم:

والتداول السلمي للسلطة، ما معنى التداول السلمي للسلطة ؟ يعني أنه لو نجح علماني، فإنه يجوز له أن يتولى السلطة في ديار المسلمين، هذا كله غريب على الإسلام

والمسلمين، والله يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]، ويقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، ويقول: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، هذا كله غير مقبول في شرع الله، هذا كله بعيد عن سبيل الله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾، الرسول ﷺ طلبوا منه بعض التنازلات فحذره الله من أن يركن إليهم ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: ٧٣]، سيرتاحون منك، ويقولون نحن وإياك على طريق واحد، كانت دعوتهم تلك لرسول الله ﷺ شبيهة بهذه الدعوة الديمقراطية، يترك لهم المجال ولأصنامهم ويتركون له المجال، لكنه أبى إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، ولم يقبل بأي تنازل أبداً.

[د] التحالف مع غير المسلمين بلا ضوابط والمساواة في الانتخابات:

اليوم في ظل هذه الديمقراطية تصوروا أن بعض الناس أصبح يمد يده للكفار، ويعقد معهم اتفاقات، واحد من هؤلاء وهو الترابي وقع اتفاقية مع جون قرنق هذا الرجل الحربي، هذا

الرجل النصراني المعروف الذي يقاتل الإسلام والمسلمين لسنوات كثيرة، الترابى أوصلته ديمقراطيته إلى أن يوقع اتفاقًا مع كافر حربي ! فأين الثوابت التي يزعمونها ؟! فقه جديد، فقه بعيد عن دين الله عز وجل وعن الصراط المستقيم، هكذا تتحول الأمور، وهكذا تنقلب، لا فرق بين هذا وهذا، الرأي والرأي الآخر، هذا رأيه الإسلام، وهذا رأيه الكفر، لا مانع من التعايش في ديار الإسلام، وليست الصدارة للإسلام، بل لا مانع من توقيع الاتفاقات، رأي العالم كرأي الجاهل، هذا صوته في الانتخابات أو في المجالس يشكل رقمًا واحداً، هل الإسلام يقبل هذا ؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، هكذا يقول الله سبحانه وتعالى، ويستوي عندهم المسلم والكافر ! أو المسلم والمرتد ! أو المسلم والعلمانى ! هذا له صوت وهذا له صوت ! عند التصويت على مستوي الشارع، أو عند التصويت على مستوى المجالس، مع أن الله يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

من البلاء أن بعض الدعاة إلى الله انزلق في هذا المنزلق!!

تبدأ الأمور بالتنازل خطوة، ثم ينتهي الأمر بالبُعد تمامًا عن منهج الله وعن صراط المستقيم، فلذلك كان الثبات على الصراط فيه مشقة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] نحن نقول هذا في كل ركعة، لأن الثبات فيه مشقة، ولا سيما في آخر الزمان والقابض على دينه كالقابض على الجمر، الضغوط شديدة، يستوحش الشخص لا يجد معه من يسنده، فيستوحش في الطريق، فيأتي الشيطان فيغريه ؛ لأن يمد يده ذات اليمين أو ذات الشمال، ولو خرج من هذا السور، أو من هذا السور، فإلى أين سيذهب ؟ سيخرج إلى خارج الطريق – والعياذ بالله –.

ومن مظاهر الاستيحاش أو الوحشة أن بعضهم أخذ يجمع ويُلَفْلِف !!!، لم يكتف بأهل الإيمان، لأن أهل الإيمان لا سيما الذين يثبتون وقت الشدائد قلة، فلذلك أراد أن يستكثر من الأعداد، فقالوا: – مثلاً – قضية فلسطين قضية مصيرية وقضية مركزية، فلماذا لا نلُمُّ جميع التيارات وكل القوى للمواجهة؟، وهذا أيضًا أثرٌ عن هذا الفكر المتميع، أثر عن الفكر الديمقراطي فقالوا: لا نكتفي بالإسلاميين، لماذا لا نضم القوميين

والعلمانيين، والروافض ومن هب ودب ؟! المهم من يؤيد قضيتنا ولو خالفنا في عقيدتنا ! فكوّنوا كياناً للدفاع عن فلسطين والدفاع عن القدس، ونسوا أن الله تبارك وتعالى لا يصلح عمل المفسدين، وأن الله تبارك وتعالى قال لنبيه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ولم يقل بالمُلَفْلَفين، فالنصر لا يمكن أن يأتي إلا من الله، والله لا يمكن أن ينصر إلا المؤمنين، فإذا خلطنا من أين سينزل النصر ؟ إذا خلطنا المنافقين، والروافض، والمؤمنين، والعلمانيين، من أين سيتنزل النصر؟ في غزوة أُحد عصى بعض الصحابة ﷺ فكانت النتيجة تلك الهزيمة، أدبهم الله بتلك الهزيمة مع أن قائدهم محمدٌ ﷺ مما يدل على أن هذا الخلط لا ينفع، إذا خُلط مع الحديد غيره من المعادن الضعيفة، فإن السبيكة تكون ضعيفة لا تثبت ولا تصمد، إذا بنيت بناءً فأتيت بالحجر المُسّوى وأتيت بالحجر غير المسّوي، وأتيت بكرتون، ثم جمعت الحجر المسوّى مع غير المسوّى مع قطعة اللبن مع قطعة الطوب مع الخشب مع الحديد مع الكرتون وبنيت جداراً !، هل يثبت هذا الجدار ؟!، لا يمكن أن يصمد !!، لا يصمد إلا الجدار المتجانس الذي

تبنيه إما من طوب مُحْكم وإما من لبن محكم وإما من حجارة مُحْكمة، أما هذا الخليط فإنك لا تستطيع أن ترفع جداراً منه، فكذلك الذين يريدون أن يخلطوا وأن يواجهوا، لا يمكن أن يتم لهم شيء من هذا.

التحالف مع غير المسلمين له ضوابط وشروط:

يقولون: تجوز الاستعانة بغير المسلمين والرسول ﷺ قد استعان ببعض المشركين وعاهد اليهود ؟! نقول لهم: الرسول ﷺ فعل هذا حين كان قد أقام دولة الإسلام، وأوجد كياناً قوياً متجانساً متماسكاً وبنياناً إسلامياً مستقلاً وجداراً إيمانياً ثابتاً من أهل الإسلام، وهؤلاء الآخرون جعلهم من بعيد كالسياج، انظر – مثلاً – في مجرى السيل – إذا أردت أن تبني حاجزاً يصد السيل فإنك تبنيه بناءً محكماً من وحدات متجانسة – تبنيه مثلاً من حجارة متجانسة – بناءً قوياً، ثم بعد ذلك في أسفل الجدار يمكن أن تضع أحجاراً غير مُسوَّاه، يمكن أن تأتي ببعض الحطب في أسفل الجدار، لأنك قد بنيت الجدار الممتاز، وتستفيد من هذه الأحجار غير المسواة، أو الحطب أو بعض الشوك، لأن الجدار الممتاز قد قام، أما حين لا يكون معك جدار

فإنك حين تجمع هذه الأخلاط لا تستطيع أن تبني جداراً أبداً.

الرسول ﷺ إنما تحَالف مع هؤلاء أو استعان ببعض هؤلاء بعد أن أقام كيان الإسلام إقامة محكمة، ولم يدخلهم إلى الصف الإسلامي، ولا إلى صلب التكوين الإسلامي أبداً، وبعض العلماء يقول: إن هذا قد نسخ، والذين يجيزون الاستعانة بغير المسلمين يضعون شروطاً، وليس كيفما اتفق، يضعون شروطاً: أن تكون السلطة والسيطرة للإسلام، وأن يكون هؤلاء الذين يستعان بهم من الذين يحسنون الظن بالإسلام، وأن لا يوضعوا في أماكن مؤثرة، إنما يكونون شبه الخدم وهكذا، هذه من ضمن الشروط والخلاصة أن هذا الفكر المتفتح إنما جاء نتيجة للوحشة، لأن السير في الطريق المستقيم فيه أعباء وفيه مشقة، والذين يسلكون هذا الصراط هم قلة، فبعض الناس يستوحش ويريد أن يجني الثمرة بسرعة، ويريد أن يصل إلى النتيجة عاجلاً، فلذلك يخلط، وهذا الخلط لا يمكن أن يوصل إلى نتيجة أبداً.

﴿قُلْ هذه سَبيلي﴾ فيها مشقة، فيها تعب، ابتلاء شديد، يقول الله سبحانه: ﴿أم حسبتُم أن تدخُلوا الجنّة ولَمّا يأتكم مَثلُ

الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

لا نقبل من غير المسلمين ما لا يتفق مع ديننا:

الرسول ﷺ عرض عليه المشركون هذا الخلط قالوا له: كما في الحديث الذي رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «اطرد هؤلاء – أي: ضعفاء المسلمين – لا يجترئون علينا، يعني: نحن سندخل معك لكن أخرج هؤلاء، يريدون أن يدخلوا بأفكارهم»، وفي بعض الروايات: «أنهم قالوا له فإذا خرجنا من عندك فشأنك وشأنهم»، يعني: لا بأس أن نجلس معهم أي سمحوا ببقائهم بشرط، وسيدخلون هم في التكوين على علاتهم دون أن يتخلوا عن أفكارهم، فأنزل الله عليه قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، والآية الأخرى من سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

[الكهف: ٢٨] اصبر نفسك - تحمَّل المشقة - ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ لا تلتفت يمنة أو يسرة ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ هل سينفعك هذا الخاوي الذي خوى قلبه عن ذكر الله ؟!، هذا عبارة عن عبء فوق ظهرك لا يمكن أن ينفعك، ولا يمكن أن يخدم أهداف الإسلام، ولا يمكن أن يوصلك إلى غاية: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩]، لسنا حريصين على أن ندخل من هب ودب، الذي يريد أن يدخل في الإسلام بهذه التبعات ويتحمل هذه المكاره فليتفضل، والذي لا يريد أن يتحمل فهو وشأنه، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ فهذه هي سبيل الله هذا هو الطريق المستقيم، هذا هو الصراط، ليس فيه تنازلات أبداً.

الاعتزاز بالدين وعدم التنازل:

ومن يتنازل فإنما يتنازل من تلقاء نفسه، أما أن تنازله حجة على دين الله فليس بحجة على دين الله، أبداً، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، أدعو إلى الله والداعية بعد أن يثبت هو على الصراط يدعو

الآخرين، أما أن يتزلزل هو ثم يدعو الآخرين فإن فاقد الشيء لا يعطيه، لابد أن يكون صلباً متماسكًا، لا يكون مداهنًا، لا يكون دهنًا يسيل عند أول حرارة ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]، لابد أن يكون ثابتًا وبعد أن يكون ثابتًا يدعو ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ والدعوة إلى الله هي أشرف الوظائف، ولذلك كانت هي وظيفة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وهم خير البشر، ويأمر الله نبيه أن يقول هكذا ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فكل أتباعه أيضًا لابد أن يكونوا دعاة إلى الله عز وجل، كل من تشرف بالالتحاق بركب الرسول ﷺ لابد أن يحرص أن يكون داعية: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، ليس هناك قول أحسن من الدعوة: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] يعتز بإسلامه، لا يقول أنا ديمقراطي، أنا لا أنزلق في التكفير، كل الناس عندي سواسية، صحيح أنه لا يجوز أن يتسرع المسلم في التكفير، أي: في تكفير المسلم، أما الكافر فيجب أن تكفّره، شخص كافر بنص كتاب الله أو بنص حديث رسول الله ﷺ،

هذا يجب أن تكفّـره وإلا أنت بنفـسك تكون في شك في النصـوص التي تكفّـر الكافرين، تكون قـد وقـعـت في الخلل، لابـد أن تعتـز بعـقـيـدتك، لابد أن تعـتـز بدينك، لابد أن تعـتـز بإسلامك، وتُفَاصِل غير المسلمين ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

من مظاهر الفقه الديمقراطي:

كـثـيـر من الناس اليـوم أصبح بدلاً من أن يدعـو إلى الله، يدعو إلى الديمقراطية، أصبح فقههم أن يدعوا إلى الرأي والرأي الآخـر ويؤصّلوا لذلك، وأن يدعـوا إلى المجـتـمـع الديمقـراطي المدني، والتداول السلمي للسلطة والمساواة بين الرجـال والنسـاء !!، وإلى الاهتـمـام بالانتـخـابات المحلية والنيـابيـة، والرئاسيـة، والنقـابيـة، وغيـرها التي شـغلت الناس عن المنكرات وأهدرت الأموال والطاقات واستـهلكت كل شيء دون أن تغير شيـئًا، تحول الفقه إلى طريق آخر ! هذه مصيبة، هذا انحراف.

من سبيل الله الدعوة إلى الله على بصيرة:

﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى فكر فـلان ولا إلى فكر عـلان ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ والدعوة إلى الله لابد أن تكون على بصيرة، ومن البصيرة أن تكون عالمًا بالواقع،

وعالمًا بالشرع، لا يصلح أن يدعو الشخص وهو جاهل، كيف تخرج في الدعوة إلى الله وأنت تجهل ما تدعو إليه، لابد أن تدعو إلى شيء أنت تعلمه أولاً، إذا أتقنت شيئًا فادع إليه، أتقنت آية ادع بهذه الآية، بلغها، ففي الحديث الذي رواه البخاري، يقول عليه الصلاة والسلام: «**بلغوا عني ولو آية**» بعد أن تتقنها تلاوة ومعنى، بلّغ هذه الآية، أما وأنت جاهل فلا، انظر إلى الطبيب هل يقبل منه أن يجرى عملية قبل أن يدرس الطب ثم بعد ذلك يتدرب ثم بعد ذلك يشرف عليه أطباء أكبر منه، لابد أن يمر بهذه المراحل حتى يجرى العملية، وكذلك التكلم باسم الإسلام، ليس كل من هب ودب يتكلم باسم الإسلام، هو تخصص كذلك، لابد أن يدرس الذي يريد أن يتكلم باسم الإسلام، ليس كل من هب ودب يتكلم باسم الإسلام، كذلك هل يأتي أي شخص من الشارع ويقفز إلى غرفة القيادة يسوق السيارة قبل أن يتدرب ؟، لا، لابد أن يتدرب وإلا فإنه سوف يقود السيارة بمن فيها إلى الهلاك، فكذلك الذي يريد أن يدعو إلى الله لابد أن يتعلم قبل أن يدعو، ولذلك قال الله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على علم بما يدعو إليه على علم

بالشرع، وأيضًا على علم بالواقع، في بعض الأحيان قد يكون هناك ضباب ويظن سائق السيارة أن أمامه أرضًا مستوية فيقفز من رأس الجبل ؛ لأنه لا يدري بالواقع، وكذلك بعض الدعاة قد لا يعرف الأولويات بسبب جهله بالواقع، لابد أن يتنزل كلامه على الواقع، فلا يدعو إلى الصلاة أناسًا عندهم شك في الإيمان، كيف يدعوهم إلى الصلاة وليس عندهم التوحيد ؟، كيف يكلم بعض الناس في السُّنن وهم مفرِّطون في الفرائض ؟، لابد أن يكون على علم بالواقع، ولابد أن تكون دعوته مناسبة لعقول الناس، لذلك حينما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن كما في الحديث المتفق عليه قال له: **«إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم»** ، وهكذا بالتدرج، العلم بالواقع مهم وهو جزء من البصيرة، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من البصيرة كذلك الحكمة، أي أن يكون الداعية حكيمًا.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه كما في صحيح مسلم: **«ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على**

بعضهم»، أن تكون أيضًا قدوة وألا تدعوهم إلى شيء وأنت تعمل غيره، فلابد أن تكون قدوة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤] وهكذا.

والدعوة إلى الله تبارك وتعالى لها آدابها ولها ضوابطها، ولابد للداعية إلى الله عز وجل من أن يدعو إلى الله على بصيرة بهذه الآداب والضوابط، نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا جميعًا إلى ما يرضيه وأن يجعلنا من الثابتين على الصراط المستقيم الداعين إليه على بصيرة وأن يهيئ لنا من أمرنا رَشَدًا.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.